قُلُوْب الرِّجَالِ

وَتَغَيّرها مِنْ حَالٍ إِلىَ حَال

محاضرة قيّمة

لفضيلة الشّيخ المجاهد

أبِي حَاتِم سَعَيْد بِن دَعَاس المشوشي رحمه الله

ويليها

تَتِمَّة للأخ الفاضل الداعي إلى الله

أبي حَمْزة مُحَمَّد السِّوَري حفظه الله تعالى

فرّغها:

أبُوْ يحيَى فارُوق بِن أحمَد المِيلي الجزَائِري

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

أما بعد:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النّساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١]

أيها المسلمون نحمد الله سبحانه وتعالى الذي وفقنا وهدانا للقاء بإخواننا، وللاتجماع بهم تحت مظلة منهج الحق، المنبثق من كتاب الله ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومنهج السلف الصالح عليهم رضوان الله؛ ونشكر إخواننا الذين أحسنوا استقبال إخوانهم واستضافتهم، وأحسنوا في مناصرة إخوانهم بالحق لا بالعصبيّة العمياء والحزبيّة الجَهْلاء، فجزاهم الله خيراً وأثابهم الله سبحانه وتعالى على ذلك وعلى حسن ظنهم بإخوانهم، وعلى فتح صدورهم لإخوانهم، وهذا من التوفيق الله سبحانه وتعالى.

إخواني في الله أشار أخونا عبد الله في كلمته السَّابقة إلى ما يتعلق بتغيّر الرجال وتلونهم في الدين، وإلى تقلب أحوالهم من حال إلى حال؛ وهذا أمرٌ يزخر التأريخ وتزخر كتب السِّير ببيانه وبذكر أحداثه للناس بل في العالمين.

وإن من المهمات التي تثبت العبد وتعينه على السّير إلى الله سبحانه وتعالى واجتناب مسالك التّغيّر والانحراف والتبديل، أن يفقه الإنسان من معالم دينه ومنهجه ما يكون له سراجاً يضيء له بين يديه الطريق ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام "مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقه فِيْ الدِّيْن" ومن الفقه في الدين الذي هو خير لصاحبه في دينه وفي عقيدته وفي منهجه؛ أن يبصره الله سبحانه وتعالى بما يسلم به من الفتنة في دينه، ومن التغيّر ومن التبديل ومن الانحراف؛ وهذا أمر لا شك يا عباد الله أنه في غاية الأهمية، أن يتعلم الإنسان وأن يتفقه وأن يتدبر وأن يعلم من معالم الحق ومن أُسسِ الشّريعة ما يسلم به من الفتن، لأن الناس يا عباد الله إنما يُؤتى كثيرٌ منهم من عدم فهم معالم الدين ومعالم الحق فهماً حقيقيا، والجهل داءٌ، والجهلُ يا عباد الله داءٌ، بل هو مادة الضلال والانحراف، والفتن يا عباد الله حطبها أهل الجهل أو المقصرين في فهم معالم الحق وأُسس الشريعة فهماً صحيحًا، وصدق النبي صلى الله عليه وسلم الذي أوتي جوامع الكلم في قوله – وهو الصادق المصدوق – " مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقه فِيْ الدِّيْن "؛ لأن الفقه يا عباد الله زادٌ، والفقه سلاحٌ، والفقه نور، والفقه بصيرة، والفقه دواءٌ تدفع عن العبد الشّبهات وتدفع عنه الشّهوات، وتدفع عنه الشهوات، ولا يخفى عليكم يا عباد الله ما وصف الله به ذوي الفقه والعلم، وما أخبر به عنهم من الخشية والثَّبات والبصيرة والتوفيق، فهذا أمرٌ يتردد كثيرٌ ذكره في المحافل والمجالس.

ألا وإن من أهم الأمور التي تعيق الإنسان وتصدُ دُونه باب الافتتان بين الحين والأخر أن يعلم أصلاً أصيلاً أمراً عظيماً، كثيرٌ من الناس يجهله عنه أو يغفل عليه فيدخل الشر منه وينحرف من بابه، هذا الأمر يا عباد الله هو أن البشر عرضة للزّلل والانحراف،كما أشار أخونا عبد الله في كلمته بقوله "التَّغَير والتَّلون"، اليوم على حال وغداً على حال آخر، اليوم على إسلامٍ وغداً على كفر، اليوم على توحيدٍ وغداً على شركٍ، اليوم على سنةٍ وغداً على بدعة، اليوم على طاعةٍ وغداً على معصية، هكذا؛ بل البشر يا عباد الله عرضةٌ للزَّلل، إلا من عصم الله سبحانه وتعالى من أنبيائه فهم معصومون عن الضلال وعن الانحراف كرامةً من الله عزوجل لهم لما علم الله سبحانه وتعالى من أهليتهم، ولهذا يا عباد الله ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : "وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذِرَاع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها" وهذا نصٌ واضح ودليل كافٍ يجعل الإنسان على قاعدة عظيمة ألا وهو أن العبرة بالخواتيم وأن العبرة بكمال النهاية لا بالبداية، أن العبرة يا عباد الله بكمال النهاية لا بالبداية، فكم من إنسانٍ كانت بدايته فيما يبدو للناس على خيرٍ وعلى علمٍ وعلى دعوة إلى السنة وإلى الحق يهُزّ المنابر ويملأ المحابر، وهكذا أيضاً فصيح اللسان وربما كان واسع العلم إلى غير ذلك، ولكن يُختم له بسوءٍ و يصير أمره إلا ضلالٍ وانحراف، وهذا هو مصداق قوله – عليه الصلاة والسلام– "حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها" والمقصود يا عباد الله من هذا؛ أن الإنسان لا يكون ميزانه ولا معياره في تقويم الرجال، وفي تقويم الأشخاص بمجرد الاغترار وبمجرد البدايات بل العبرة بكمال النهايات؛ ولهذا يا عباد الله كان مما أوصى به أئمة السنة والإتباع وأئمة الحق والدين أن الإنسان لا يجعل دينه مربوطًا بالرجال، لأن الرجال عرضةٌ للزّلل

وعرضةٌ للانحراف، فمن جعل دينه مربوطًا بالأشخاص وبالرجال وانبحر إما بفصاحة اللسان أو بكثرة التصنيف أو بكثرة الأتباع فإنه – والحال كذلك – قد يزل بزلل من تعلق به، وقد يضل بضلال من تعلق به، ولكن يجعل دينه مربوطًا بالمعصوم عليه الصلاة والسلام، الذي هو معصمٌ ودينه دين الحق تلقاه عن الله ومنهجه منهج رُشدٍ وسداد أخذه عن ربه سبحانه وتعالى بوحي من الله لا من عند نفسه ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس : ١٥] ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣-٤] فنبينا عليه الصلاة والسلام ما جاء به من دين ومن منهج ومن عقيدة ومن صراطٍ مستقيم إنما هو من عند الله عزوجل وبوحي الله سبحانه وتعالى دعا إليه، وبوحي الله سبحانه وتعالى أمر به؛ إذًا فمن تعلق ومن ربط دينه ومنهجه وعقيدته بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام فحقيقٌ أن يأمن من الضلال والانحراف، هكذا أو معنى هذا ذكر الإمام ابن أبي عبد العز الحنيفي – رحمه الله – كتابه [الإتباع] وغيره من أهل العلم، وأما البشر يا عباد الله وإن هزّ المنابر وإن ملأ المحابر وهكذا أيضاً، وإن كثر أتباعهم وإن علا صواتهم وإن انتشر ذكرهم وأمرهم فقد يختم للواحد منهم بسوء والعياذ بالله فليس أحدٌ من الناس ضامنٌ أن يختم له بخير ممن لم يضمن الله عزوجل لهم الموت على التوحيد والدين والحق، فنعم يا عبد الله.

فإذا علمت ذلك واستقر عندك هذا الأصل الأصيل، إذاً زن الناس بميزان الشريعة زن الناس بميزان الحق، انظر إلى الخواتيم والنهايات ولا تنظر إلى مجرد البدايات، لا تنظر إلى مجرد البدايات.

وعلموا يا عبد الله أن تقلب الحال وتغير الإنسان من حق إلى باطل ومن هدى إلى ضلال، إنما يكون بحسبِ ما يسير عليه الإنسان ظاهراً وباطناً، ولهذا جاء عن بعض السلف أنه قال "من كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة" وكيف يكون الإنسان بدايته مشرقة إلا بالمجاهدة والمصابرة والتجرد للحق، وهكذا أيضاً بالصدق مع الله عزوجل والإخلاص وباجتناب مطامع الدنيا ولذاتها من أجل الدين، وهكذا أيضاً بالصبر على البلاء في سبيل الله سبحانه وتعالى وبتكالب الأعداء وبغير ذلك من الأمور التي هي من أسباب الثبات والخاتمة الحسنة، فمن كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة؛ فلا خاتمة حسنة ولا نهاية مشرقة إلا لمن صدق مع الله، ولمن استقام ظاهراً وباطنًا، ولمن تجرد ولمن أنصف ولمن سلك طريق الحق ولم يلتفت عنه يميناً ولا شمالاً، بل يقف حيث أوقفه الشرع بل يسير كما أراده الله وأراده رسوله عليه الصلاة والسلام ولو أن يفارق أقرب الناس إليه، فنعم يا عباد الله؛ إذا استقر عندك وعلمت أن البشر عرضة للتغير وللزّلل، كما جاء في نص الحديث إذاً فأنت آمنٌ إن شاء الله من أن تضل من ضلال زيدٍ أو عبيد أو أن تفتن بافتنان فلانٍ أو علان، لأنك – والحال كذلك– لا تستعظم انحرافه ولا تستعظم ضلاله، ولا تستحيل تغيّره من حق إلى باطل، لأنه قد علمت علماً يقيناً أنه قد يضل قبل موته بلحظات، قد يضل ويزل قبل موته بلحظات يسيرة، ولهذا يا عباد الله أمثلةٌ ونماذج كثيرة منها قول الله سبحانه : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف : ١٧٥-١٧٦]

هذه يا عباد الله آية عظيمة، وفيها والله عِظة وموعظة عظيمة، وحريٌ بنا جميعاً عند سماعها أن نخاف خوفاً شديداً على أنفسنا يا عباد الله، وألا نضمن لأنفسنا البقاء على ما نحن فيه

إلى نلقى الله سبحانه وتعالى فضلاً عن أن نضمنه لغيرنا ممن لا يهمهم شأننا أو ماذا، ممن شأنهم يهمهم ويهم أنفسنا فنعم يا عبد الله؛

هذه الآية فيها موعظة ومن تأملها وتدبرها يقشعر جلده ويرجف فؤاده، لأنه رجلٌ أتاه الله العلم {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا} علمه الله فقّهه الله علم من دين الله ما لم يعلمه غيره {فَانْسَلَخَ مِنْهَا} ضل وزلّ وخُتِمَ الله والعياذ بالله بخاتمة سيئة فانحرف عنها {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} ضل وغوى {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} لماذا يا عباد الله لماذا لو شاء الله لرفعه الله عزوجل؟؟، لأن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يريد، يفعل ما يشاء لكنه سبحانه وتعالى بحكمته وبعدله أنه يهدي من كان أهلاً للهدية، ويثبت من كان أهلاً لثبات، ويضل من كان يستحق الضلال لما علم الله سبحانه وتعالى من حاله وشقاوته {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} عنده من الهدية والعلم ما عنده آتاه الله آياته، عنده من العِلْم والفقه ما عنده آتاه الله آياته {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ} يعني: مَال إلى الدنيا، طلب الدنيا بعلم الآخرة، جعل طريق الدين طريقاً إلى الدنيا {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاه} لم يُحكِم شرع الله في نفسه ولم يقف حيث أوقفه الله سبحانه وتعالى ولم يتجرد ولم ينصف بل مال به هواه ذات اليمين وذات الشمال {وَاتَّبَعَ هَوَاه} فلهذا يا عباد الله ضلّ وزلّ وانحرف وقد حفظ من آيات الله ما حفظ، وعلم من دين الله ما علم وقد فَقُه من أحكام الله ما فقه، وليس الشأن بأن تعلم وأن تفقه وأن تتعلم ولكن الشأن يا عبد الله أن تعمل وأن تصدق وأن تجرد وأن تأخذ بما علمت، ولا تخاف في الله لومت لائم، وإلا فلو أن كل ما علم ثبت وكل من فقه استمر لما ضل هذا الرجل الذي أتاه الله {آياته فَانْسَلَخَ مِنْهَا}.

وانظروا يا عباد الله انظروا إلى من ترونه أمام أعينكم ممن كان ربما يضرب به المثل في الزّهد أو في التقشف أو في عدم الانتصار في أمور الدنيا أو في التواضع ظاهراً، لما ظهر التغيّر والانحراف فيهم يبدو عليهم ما ذكره الله سبحانه وتعالى في هذه الآية {أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاه} الدنيا تنفتح لهم على مصراعيها بينما هو يسكن في دارٍ متواضع وإذا به يسكن في دارٍ وكأنه قصرٌ من قصورِ الملوك، بينما يفترش من الفرش فرشاً متواضعة وإذا به يفترش منها ما هو من شأن الأثرياء والأغنياء، وبينما هو يركبُ مركباً متواضعاً فإذا به يركبُ مركباً فاهراً وهو من شأن الأثرياء الأغنياء، إلى غير ذلك كما أنك أيضاً تجده لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب بهواه لأنه اتبع هواه {آيَاتِنَا أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاه} فضلّ وزلّ وغيّر وبدّل الله حاله وسلب الله عزوجل منهم النعمة التي كانوا عليها، وهذا والله يا عباد الله مثلٌ عظيم كما سمعتم يجعل الإنسان يقشعر جلده ويرجف فؤاده وأن يصير أمره إلى ما صار عليه حالُ هذا الرجل.

وأعظم من ذلك ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن عدوه إبليس عليه لعنة الله، فإنه كان في الملإ الأعلى، إنه كان في الملأ الأعلى، وذلك يا عباد الله أعظم مقام، ذلك يا عباد الله أعظم مقام ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩] كان إبليس بالملإ الأعلى وكان جليساً للملائكة، وكان مقرباً قبل أن يضل وقبل أن يكفر بالله سبحانه وتعالى، لكن صار مطروداً من رحمةِ الله ملعوناً صار ممقتاً صار مذموماً، وهل نفعه قبل أن كان قبل ذلك يا عبد الله بالملإ الأعلى؟ وهل ضُمن له الخير إلى أن يأتي ذلك اليوم؟ أم كان قبل ذلك مقرباً؟ لا، فهذا مما يدلك يا عبد الله أن العبرة بالنهاية لا بالبداية؛ وإلا فإن إبليس كان في مقامٍ عظيم كان في الملإ الأعلى، ولكنه تمرد على الله واستهان بربوبية الله، ونسب رب العالمين سبحانه إلى الظلم وإلى والجور، حين أمره الله بالسجود لآدم كما يدل

عليه قوله وقد أمره الله بالسجود فقال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] ومعنى هذا أن لسان حاله ومقاله، أنه يقول: هذا ليس من العدل أن تأمرني لسجود لمن هو دوني لأني خُلقت من نار وخُلق آدم من طين، والنّار في ظنه أشرف من الطين وهذا في ظنه الخاسر، فنعم؛ يا عباد الله فكفى بما صار إليه إبليس عبرة وموعظة أن نخشى على أنفسنا وأن نخاف من سوء العواقب التي هي أمامنا، ولسنا ضامنين من أنفسنا أن نستمر يا عباد الله على ما نحن عليه من خيرٍ ومن سنة ومن استقامة ومن عقيدة صحيحيةٍ ومنهجٍ صحيح، فما أكثر المتساقطين! كانوا بالأمس يشار إليهم بالبنان بالدعوة إلى الحق في النفاح عن منهج السلف في هز المنابر في تسويد المحابر إلى غير ذلك، إلى أين صاروا يا عباد الله؟! إلى أمرٍ مخزي، هذا يا عبد الله ينبغي أن يدعوه إلى الحذر الشديد، وذلك لا يكون يا عبد الله إلا بمعالجة نفسك وبمجاهدتها بالتجرد للحق، وبالارتباط بالحق وبالإنصاف لك وعليك، وبألّا تقدم بين يدي الله ورسوله قول أحدٍ، وأن تبغض في الله وأن تحب في الله، وأن توالي لله، وألّا يكون همك وغرضك في الدنيا وشهواتها ولذاتها وزينتها، وأن يكون همّك ما يرضي الله سبحانه وتعالى وإن سخِط من على ظهرها، وإن سخِط من على ظهرها

فلَيْسَ الذِيْ بَيْنِيْ وَبَيْنك عَامِرٌ *** وَبَيْنِيْ وَبَيْن العَـالَمِيْنَ خَرَاب

إِذَا صَحَ مِنْكَ الودُ فَالكُل هَيِنٌ *** وكل الّذِيْ فَوْقَ التُّرَابِ تُرَاب

نعم يا عبد الله وهذا الأنصاري الذي حفظ البقرة وآل عمران، كما جاء في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله تعالى عنه قال: "كان رجلٌ من بني النّجار قد حفظ البقرة وآل عمران، وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم" قال: "ثم إنه ارتد

عن دينه ولحق بالنصارى فلما جاءهم أكرموه لمكانه للرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان يكتب الوحي لرسول الله عليه الصلاة والسلام" أي مقامٍ يا عباد الله أشرف من هذا المقام، هذا مقامٌ عظيم من كُتّاب الوحي المنزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكن يا عباد الله لم تكن هذه عبرة ولكن العبرة بنهايته حيث كان نهايته مخزية وأذله الله سبحانه حين غير وبدل وحين لم يحفظ النعمة ولم يرعها التي أنعم الله عزوجل بها عليه، "لحق بالنصارى فأكرموه وأنزلوه منزلاً عظيماً" قال: "فما لبث أن قسم الله ظهره" – أي مات – قال: "فحفروا له حفرة فواروه فأصبحوا وقد لفظته الأرض على ظهرها فقالوا: محمد وأصحابه –أي هم الذين نبشوا قبره– "ثم حفروا له و أعمقوا فأصبح وقد لفظته الأرض على ظهرها ثم حفروا له في اليوم الثالث وأعمقوا أكثر من ذلك فأصبحوا وقد لفظته الأرض على ظهرها فعلموا أن هذا أمرٌ لم يفعلهُ أحدٌ من البشر وإنما هو من الله فتركوه منبوذاً في العراء" انظروا يا عباد الله أذله الله أهانه الله، كانت نهايته فيما يبدوا للناس حسنة، ولكن العبرة بالنهاية حيث أن أخزاه الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة: ٢٠] ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧] وقال نبينا –عليه الصلاة والسلام–: "وجُعِلَتْ الذِّلةُ والصَّغَار على مَنْ خَالَفَ أَمْرِي" وقال ربنا سبحانه : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] هذه الآيات يا عباد الله ينبغي أن ننزلها وأن نتعظ بها نحن أولاً، قبل أن نفهما في غيرنا من أهل البدع والضلال، لأن كثيراً منهم كان يوماً من الدهر في المكان الذي نحن فيه، كثيرٌ منهم كانوا طلاب علمٍ، كثيرٌ منهم كانوا دعاة إلى الله كانوا ماذا؟ يعظون وينصحون ويدعون إلى منهج السلف، لكن صاروا إلى ما صاروا إليه بسبب وما

ارتكبوه وما تمادوا فيه من المخالفات فيما بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، فأدَّى بهم هذا الأمر العظيم إلى ما أدَّى عليه ولا يخفى عليكم يا عباد الله؛ ولهذا ذكر الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث في "الجامع العلوم والحكم" في حديث سهل رضي الله عنه في قوله "وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها" قال عليه رحمة الله تعالى: وإنما صار أمره إلى سوء الخاتمة بسبب دسيسةٍ فيما بينه وبين الله، وبسبب أمرٍ بينه وبين الله عزوجل دسيسة تبقى في القلب، ذنبٌ معصيةٌ معنى فاسد عقيدةٌ فاسدة، منهج فاسدٌ يبقى في قلب العبد يبقى ظلمته، ويبقى أثره في قلب العبد حتى يتلفه يوماً من الدهر وينقلب على عاقبيه.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى قال: "والانقلاب إلى عمل أهل النار قد يكون إلى كفرٍ وقد يكون وقد يكون إلى معصية فليس بلازمٍ أن يكون الانقلاب يا عباد الله خاتم السوء لا يلزم أن يكون إلى كفرٍ وارتدادٍ عن دين الله، بل قد يرتد الإنسان عن دينه والعياذ بالله، وقد يختم له بسوءٍ بأن يصير أمره إلى معصية إلى بدعةٍ إلى تحزبٍ إلى ضلال إلى شيء من الأهواء والضلالات فنعم؛ يا عباد الله ولهذا ذكر الإمام عبد الحق الأشبيري رحمه الله تعالى ونقله عنه الإمام الشاطبي في [الاعتصام] وغيره من أهل العلم قال عليه رحمة الله: سوء الخاتمة لا تكون لمن استقام ظاهراً وباطناً –ولله الحمد– فمن استقام ظاهره وباطنه استقام قلبه قبل جوارحه لا يختم له بسوءٍ ولله الحمد نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الاستقامة ظاهراً وباطناً،

قال: "سوء الخاتمة لا تكون لمن استقام ظاهراً وباطناً ولله الحمد، قال: "وإنما سوء الخاتمة لمن استقام ظاهره وهو مصرٌ على الذنوبِ فيما بينه وبين الله مصرٌ على ذنبٍ على كبيرةٍ

من كبائرِ الذنوب فيما بينه وبين الله سبحانه وتعالى أو أصيب بفسادٍ في عقلهِ فتتقلب عنده الحقائق ويحرم التوفيق ويحرم الإنصاف ويحرم التجرد والإتباع ويحرم الإذعان والانقياد والاستسلام لأمر الله لأن من تمرد على الله ولم يتجرد، ولم ينقد، ولم يتبع ففي عقله خللٌ وفساد لأن الحق يقبله أهل العقول الصحيحة ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٢] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]{إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} أي أصحاب العقول السَّليمة، فمن أصيب بخللٍ في عقله فحريٌ به، و رقُب يا عبد الله انحرافه وضلاله، وأمارة فسادُ عقله ما سبق ذكره أن لا تجده متجرداً ولا مستسلماً ولا مذعناً، بل لا زال هواه يكفئه ذات اليمين وذات الشمال، ولا يزال يتودد ولا يسارع نحو الحق عند بزوغه وظهوره، لا يزال يا عبد الله يرغب إلى الدنيا وعلى حساب التقصير في دينه، كله يا عباد الله خللٌ وفسادٌ في العقل، قال: "أو من أصيب بفساد في عقله أو من غير فجرى على غير سننه –يعني صار ينكر ما كان يعرف ويعرف ما كان ينكر التي هي البلية والرزيّة – كما قال حذيفة رضي الله عنه "إن الرزية كل الرزية أن تنكر ما كنت تعرف وأن تعرف ما كنت تنكر" هذا صنفٌ يا عباد الله وهذا عبدٌ جرى على غير ما كان عليه، غيَّر وبدَّل هذا موجبٌ في تغيير حاله وسوء خاتمته لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ومن جرى على ما كان يعرف وصار يعرف ما كان ينكر وينكر ما كان يعرف فقد غيّر وبدّل وقد كفر نعمة الله عليه فهو حريٌ بأن يغيّر الله سبحانه وتعالى من حاله {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ} ولهذا قال ربنا عزوجل في كتابه {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ} جاء الحق ظهر الحق عُرِفَ الرّشد والصّواب ﴿وَإِذَا مَا

أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥] فنعم يا عباد الله هذا كله من موجبات تغيّر الأحوال والافتتان والانحراف والضلال، الإسرار على الذنوب بين العبد وبين ربه سبحانه وعدم التوبة والمحاسبة للنفس بين الحين والآخر فسادٌ وخللٌ في العقل إضافة إلى التّغيير والتبديل لما كان يعرفه الإنسان قبل ذلك ومن غير غير الله حاله ومن بدل بدل الله حاله كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] كانو في أمان، كانوا في سعادةٍ، كانوا في عيش رغيدٍ فغيروا فغير الله حالهم وبدلوا وبدل الله حالهم وكفروا نعمة الله عليهم فسلب الله عزوجل ما بأيديهم من النعم ولهذا قال سبحانه ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٦] وقال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا *

فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٢-٤٢] فانظروا يا عباد الله إذا كان تغيير العبد في دينه يجعل الإنسان خاوياً في دنياه، يسلب الله سبحانه وتعالى من بين أيديه نعم الدنيا وملذاتها فكيف بالدين؟ يا عباد الله؛ فإن الإنسان إذا غير وبدل وجرى على غير السنن التي كان عليها وصار يعرف ما كان ينكر أوينكر ما كان يعرف فإنه سيبدل الله حاله ويصير دينه خاوياً هزيلاً يصير متبعاً لهواه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه فانتبه، يا عبد الله، فنتبه أيها العبد المسلم، وتعظ بمن سبق فإن ربنا سبحانه وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]فمن اتعظ بغيره فهو السعيد والسعيد كما سمعتم من وعظ بغيره، السعيد من وعظ بغيره ولهذا يا عباد الله لم يذكر الله سبحانه وتعالى قصص القرآن وأخبار الأمم الهالكة وكيف هلكت وكيف قابلت الحق ودعوة الحق إلا لنجعل ذلك عبرةً لنا وموعظةً لنا كي لا نقع فيما وقعوا فيه ولا نسير فيما ساروا فيه، فالمصيبة يا عباد الله كل المصيبة أن نضلَّ على علم وعلى بصيرة وأن نقع فيما ضلَّ به من قبلنا وقد أنكرنا وقد نهينا وقد حذرنا سلمنا الله سبحانه وتعالى فنعم يا عباد الله يجب علينا أن ننتبه.

واعلموا أيها الناس أن أسباب تغير الحال والتبديل وأسباب سوء الخواتم كثيرة ألا وهي الأدواء الباطنة التي بين الإنسان وبين ربه سبحانه وتعالى، وربما لا يطلع عليها كثيرٌ من الناس،ولهذا تجد الناس يستغربون إذا قيل فلانٌ ضلّ وإذا قيل في فلانٌ زلّ وإذا قيل في فلانٌ انحرف أو تحزب لماذا يا عباد الله؟، لأنهم لا يعلمون من حاله ظاهراً إلا الاستقامة والخير ولكنهم جهلوا أن بينه وبين الله عزوجل ما لا يعلمه إلا الله، جهلوا أن ثَمّ فسادٌ فيما بينه

وبين الله تعالى لا يعلمه إلا الله، ولهذا يا عباد الله من ذهب ذات اليمين وذات الشمال وسقط وضل ونحرف تبدوا خطاياه وتظهر شؤونه الفاسدة ويظهر ما كان يخفيه وما كان يسره وما كان يتستر به، وهذا والله فيه أعظمُ عبرةٍ لنا وأن الله سبحانه وتعالى يفضح وأن الله سبحانه وتعالى يكشف الستر من استتر على غير طاعة الله ومن أبطن ما لم يظهر ومن أخفى ومن كتم خلاف ما يبدي للناس فانتبهوا يا عباد الله واعتبروا واجعلوا من عدانا عبرةً لنا واجعلوا من عادانا عبرةً لنا.

ومن ذلك يا عباد الله من أسباب الضلال ومن أسباب التغيّر والانحراف أما الإنسان لا يسير سيراً واضحاً لا يخاف في الله لومت لائم، وهذا داءٌ يبتلى به كثيرٌ من الناس وهذا داءٌ وهذا داءٌ بالباطل يبتلى به كثيرٌ من الناس وتساقط بسببه كثيرٌ من طلاب العلم، وكثرٌ من الدعاة وكثيرٌ ممن يشار إليهم بالبنان كثيرٌ منهم يخشى في الله لومت لائم، أو ما شابه ذلك لأمرٍ أو لآخر لأمرٍ لدنيا لثناء حسن، لغير ذلك ولهذا جاء عن ابن سيرين رحمه الله أنه قال كما ذكر هذا الجوزتني في مقدمة كتاب [الأباطيل] قال –رحمه الله– أو في مقدمة كتاب [أحوال الرجال] قال – رحمه الله– تعالى: "من آثر الملاوم في موافقة الحق رد الله عليه تلك الملوم كلها حمداً ومن آثر المحامد في مخالفة الحق رد الله عليه تلك المحامد كلها ذمًا" أثرٌ سلفيٌ منطلقٌ من قوله عليه الصلاة والسلام كما جاء في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها الذي يحسنه العلامة الألباني رحمه الله أن النبي عليه الصلاة والسلام قال "من أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاس عَنْهُ وَمَنْ أَرْضَى النَّاس بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَط النَّاس عَلَيه" فنعم يا عباد الله كثيرٌ ممن يحامي عن الباطل وكثيرٌ ممن لا يصدع بالحق وكثيرٌ ممن يتخاذل في نصرة الحق ويتأخر في الاستجابة للحق كثيرٌ منهم يخافون في الله لومت لائم، يراعون مشاعر الخلق ولا يلتفتون إلى مرضات رب الخلق نعم يا

عباد الله، وهذا من أسباب الضلال ومن أسباب الانحراف لأنه من جملة ما يوجب سوء الخواتيم وسوء الخواتيم يا عباد الله كثيرة يطول بذكرها المقام يطول بذكرها المقام ومنها ما هو معلومٌ ومنها ما قد يغفل عنه كثيرٌ من الناس.

الدنيا وهكذا أيضاً الإخلاد إلى الأرض وكما سمعتم في قوله سبحانه {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ} أي مال إلى الدنيا وطلبها وغتر بها وتنازل عن دينه من أجلها {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}.

والاتباع الهوى يا عباد الله من أسباب الضلال ومن أسباب الانحراف لأن صاحبه يصير لا يقبل من الحق إلا ما وافق هواه، ولا يأخذ من الحق إلا ما وافق رغباته وشهواته وهذا أمرٌ يا عباد الله له أدلة وله أمثلته وله نماذجه التي لا تحصى ولا تعدُ ولكن فيما ذُكِرَ إن شاء الله الكفاية واتركوا المجال لمن بقي من إخواني حفظهم الله تعالى فيتفضل أحدهم وفقني الله وإياهم ونفعني الله بما سمعنا والحمد لله رب العلمين.

تتمة

للأخ الفاضل الداعي إلى الله

أبي حمزة مُحمَّد السِّوَري

حفظه الله تعالى

الحمد لله حمداً طيباً مباركًا فيه وأشهد أن لإله إلا الله وحده ربي لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أما بعد:

فنحمد الله تبارك وتعالى الذي وفقنا لزيارتكم في هذا المسجد المبارك، الذي يعتبر منارةً للسنة ولأهل السنة.

ونشكر لكم ترحيبكم وحسن استماعكم، وشكر الله لأخينا الداعي إلى الله أبي حاتم سعيد بن دعاس حفظه الله تعالى على هذه الكلمة الطيبة النافعة المدعمة من كتاب الله ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهكذا هم دعاة السنة وحملة راية العلم يدعون الناس من كتاب الله إلى كتاب الله ومن سنة رسول الله إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لا يريدون من الناس جزاءً ولا شكورًا.

عباد الله في هذه الدقائق المتبقية أحب أن أتكلم على أمرٍ هامٍ وقد تكلم أخونا حفظه الله تعالى على أسباب انحراف من قد انحرف، ولكن أحب أن أعالج هنا بإذني الله عقباتٍ ومزالقَ تقف أمام دعاة السنة ورجال العلم، الذين ما زالوا على كتاب الله وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكما تعلمون فضل العلم ومكانة العلم وقدر العلم من كتاب الله ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأعظم ما يدل على ذلك قول نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم "مَنْ يُرِد اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقه فِيْ الدِّيْن" ويقول نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما في البخاري من حديث عثمان "خَيْرُكُم مَنْ تَعَلَم القُرآن وتعلمه" وفي روايةٍ "أَفْضَلُكم مَنْ تعلم القُرآن وتعلمه".

فالدعاة إلى الله هم خيرة الخلق بعد الأنبياء ابتداءً من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

الدعاة إلى الله عباد الله في كل زمانٍ وفي كل مكان، تقف في وجوههم عقبات من تجاوز هذه العقبات سار إلى الله، وسار إلى مرضات الله وسلم دينه وسلم علمه وسلمت استقامته.

من هذه العقبات الخطيرة التي تقف في وجوه الدعاة العمل لغير الله سبحانه وتعالى، العمل من أجل الدنيا الرياء والسمعة، دعوةٌ من أجل الرياء ومن أجل السمعة، ليست دعوة إلى الله على الحقيقة ولكن دعوة إلى المصالح دعوةً إلى التجميع، دعوةً إلى تكثير الأتباع ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم

مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الآيات[الزمر ١١- ١٥] وجاء في المسند من حديث معاذ رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: "مَنْ شَهِد أَن لَا إِلهَ إلا الله مخلصاً من قلبه دخل الجنة" فترى كثيرٌ من الدعاة الذين انحرفوا والعياذ بالله كان لهم مآرب وكانت لهم غايات ولم تكن الدعوة إلى الله عزوجل هي بغيتهم، لم تكن الدعوة إلى تصحيح العقيدة هي بغيتهم وإنما كانت دعوة في الظاهر والله أعلم بالبواطن ويقول الله عزوجل في كتابه الكريم: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] هذه عقبة عظيمة في وجوه الدعاة، "مَنْ لَقِي اللهَ لَا يُشْرك بِه شيئاً دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار" ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] "من يرائي يرائي الله به ومن سَمّع سَمّع الله به" الجزاء من جنس العمل.

كذلك من العقبات يا عباد الله الدنيا وشهواتها وملذاتها؛ فترون كثيراً ممن انحرف وزاغ، كان في حالة صعبة للغاية تجده لا يوجد ما يأكل وما يلبس ولا ما يركب ولا يجد ما يجد به الكتاب والقلم والأوراق، فلما انحرف إلى الدنيا ولما زاغ إلى هواها فإذ بالأموال تأتيه عليه زرافاتٍ ووحدانا ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٥-٤٦]، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

يا أيها الداعي إلى الله لا تغتر بزخارف الدنيا وشهواتها وملذاتها وما عند الله أبقى، وما عند الله خير ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: ٢٨]

الدنيا سببٌ عظيم وعقبةٌ عظيمة أمام الدعاة إلى الله، فإذا كان الدعاة إلى الله لا يبالون بها ولا يفتتنون بها فإن هذه الدّعوة سوف تستمر، وهذا الخير سوف يستمر ودعوتك سوف تستمر ويلتف حولك طلبة العلم ويحبون ما عندك كما كانوا يحبون شيخنا رحمه الله، ويحبون أن يتتلمذ على يديه وعلى خليفته من بعده لأنهم وجدوا هؤلاء الدعاة لا يرغبون في الدنيا بل الدنيا قد جاءت إليهم فرفضها وتركها، وجاءت إليهم الجمعيات، وجاءت إليهم الحزبيات، وجاء إليهم أربابً الأموال، ومع ذلك تركها من أجل الحفاظ على دعوتهم ومن أجل الحفاظ على طلابهم، فالدعوة يا عباد الله أمرها مهمٌ للغاية فلذلك الدنيا تقف عقبةً عظيمةً أمام الداعي إلى الله.

كذلك من العقبات التي تقف أمام الدعاة إلى الله الكبر والعناد، فكم انحرف من داعٍ إلى الله بسبب الكبر وبسبب العناد ما انحرف اليهود والنصرى إلا بسبب العناد والكبر ﴿الَّذِينَ

آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] كبرٌ وعناد ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]هذا تهديدٌ من ربنا سبحانه وتعالى:{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} يصرف الله قلوبهم ويصرف الله أفئدتهم ويصبحون وراء الدنيا وراء الشهوات والملذات، أما المتواضع أما الذي هو متواضعٌ وفي سكينة يحب العلم ويحب أهل العلم ويحب السنة وأهل السنة فهو إلى خير ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] فالكبر والعناد من أسباب الزيغ والانحراف، وعقبةٌ عظيمةٌ أمام الدعاة.

كذلك من العقبات والعياذ بالله مجالسة أهل البدع، مجالسة أهل الأهواء، مجالسة أهل الضلال والزيغ، فكم من طالب علم وكم من داعي إلى الله كان على خير وكان على سنة وكان في ازديادٍ من العلم، يحفظ البخاري ويحفظ مسلم ويحفظ غير ذلك من المتون، ويحفظ غير ذلك من الخير العظيم، فلما جالس أهل البدع فإذا به يزيغ وينحرف ويضيع ما كان عنده من خير وما كان عنده من فائدة، وانظروا أين ذهب أصحاب الجمعيات؟ أين كان عبد المجيد الزيمي أين كان محمد المهدي؟، أين كان فلانٌ وفلان ممن كان عندهم من لخير العظيم بعضهم أصبح على السيارات بعضهم أصبح يخطب من ورقة بعد أن كان يهز المنابر بعد أن كان يتجمع له الآلاف المؤلفة، بعد أن كان يستفتى من داخل اليمن ومن غيرها، لكن عندما ففتتن وجالس أهل البدع، ودافع عن المتحزبة ودافع عن الذين يحاربون أهل السنة وإذا به يضيع والعياذ بالله ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]، ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] "لا تجالسوا أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة" هكذا جاء عن أبي قلابة رحمه الله؛ وتجد في كتب السلف من الآثار ومن العبر ومن القصص العظيمة العجيبة التي تبين هذا الأمر، وإنكم أيها الناس لتجدون في صفوفكم وكذلك نحن نجد في صفوفنا من كان على خير وكان على سنة إذا به يذهب إلى مساجد الحزبيين ويذهب إلى مراكزهم ويدافع عن فلانٍ وفلانٍ وفلان فإذا بدعوته تطيش وإذا بطلابه يتفرقون وإذا بالحزبيين يلتفون حوله تأتي إلى محاضرته فتجد أن الحزبيين قد اتجمعوا عليه من إخوانٍ وسروريةٍ وقطبية، لماذا يا عباد الله؟ لأن هذه عقبة عظيمة ما استطاع أن يتركها ما استطاع أن يتجاوزها فوقع في فخاخها ووقع في شباكها.

كذلك من العقبات العظيمة التي تقف أمام الدعاة إلى الله عدم العمل بالعلم، فكم من إنسانٍ تجده يقول قولاً ويخالِفهُ، يقول شيئاً ويخالف ذلك فإذا به يضيع وإذا به يفتر وإذا بدعوته تتشرذم وتتفكك، لماذا يا عباد الله؟ لأنه لم يعمل بعلمه، "فعلمٌ بلا عمل كشجرة بلا ثمر" يقول الله عزوجل في كتابه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣] هذا أمرٌ محرمٌ يا عباد الله فإذا وقع فيه الدعاة فشلوا وغضب الله عليهم ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩] ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] يعلمون أن هذا منكر فيتجنبون، ويعلمون أن هذا سنة وخير فيتبعون.

أما غيرهم من أهل النفاق وأهل العناد فإنهم يعلمون الحق ولا يتبعون ذلك فكان ذلك من الأسباب العظيمة التي تؤدي بهم إلى غضب الله ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

لابد يا عباد الله من تجاوز هذه العقبات حتى تستمر دعوتك يا أيها الداعي.

كذلك من العقبات التي ينبغي لك أن تتجاوزها هي عدم المبلات بأهل البدع وأهل الباطل ولو حذروا منك ولو شتموك ولو قذفوك ولو عملوا فيك ما عملوا ولو حرّشوا عليك الصغير والكبير لا تبالي، لا تبالي بهذا أبدًا {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣]

لا بد من الثبات ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٩] حكمة الله سبحانه وتعالى لكن الدعاة إلى الله إذا لم يبالوا بأهل الباطل وأهل التحزب وأهل الانحراف ويجعلونهم وراء ظهورهم ويُقبلون على ما هم عليه من تعليم الناس كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم استمر الخير واستمرا النفع فكم حذر المحذرون من الأمام الوادعي رحمه الله اتهموه بأنواع شتى من أنواع البدع والضلالات كفروه وجعلوه زنديق وجعلوه كذا وكذا وكذا لكنه لم يبالي لأنه على ثبات لأنه على قوةٍ علميةٍ رزينة هكذا ليكن الدعاة إلى الله على خيرٍ وثباتٍ وعلم، لأنك إذا لم تكن على علم تهنت أمام أعدائك وأمام خصمائك ووجدوا منك

فريسةً سهلة وغنيمةً بسيطة، لكن إذا كنت على علم من كتاب الله ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لن يستطيعون لك أبدًا إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى.

كذلك من الأسباب أو العقبات العظيمة التي تقف أمام الدعاة إلى الله التقليد، التقليد تجد داعٍ إلى الله له في الدعوة من يقرب خمسة عشر سنة أو عشر سنين إذا ألمت الفتن إذا به يقلد لم يأخذ بالحجة والبرهان لم يأخذ بالأدلة الساطعة، لم يأخذ بما قاله الله وقاله رسوله لم يقف عند منهج السلف، لم يقف عند أقوال السلف إذا به يتابعه أشخاصاً غير معصومين لا يتابع المنهج السلفي المعصوم الذي هو على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

لذلك أيها الناس ....

فرغها:

أبو يحيى بن أحمد الميلي